فصل من كتاب خطير :

« شمس الله تسطع على الغرب » ..

للمستشرقة الألمانية سيغريد هانك

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

صدرت في باريس مؤخرا الترجمة الفرنسية لكتاب هام صدر منذ عامين في المانيا بعنوان « شمس العرب تسطع على الغرب » وهو للمستشرقة الالمانية سيغريد هانك . ولا ريب في ان هذا الكتاب من اهم الكتب التي تنصف العرب وما قدموه للحضارة العالمية من تراث .

وتنشر « الآداب » فيما يلي مقدمة الكتاب والفصل الاول منه كنموذج يستطيع ان يحكم القاريء العربي من خلاله على اهمية هذا الاثر العلمي العظيم الذي يكشف الدور الحضاري العربي الكبير الذي ما فتيء اعداء العرب ينكرونه او يشوهونه .

ليس عالم اليوم مؤلفا بعد من اوروبا وحدها . وتاريخ اوروبا لا يشكل وحده بعد تاريخ العالم اليوم . فلقد ارتقت شعوب اخرى ، تعيش على قارات اخرى ، مسرح الاحداث العالمية الحاضرة . ومع ذلك ، وبينما تضطلع جميع اجزاء العالم ، بلا استثناء ، بدورها في سيناريو التاريخ الكوني ، فاننا ما نزال اليوم نذكر الماضي على شكل « خريطة لنصفي الكرة الارضية » ، خريطة مختصة بالقرون الوسطى تتكون فقط من اوروبة يحاصرها المحيط ، اوروبا تحتل عاصمتاها الروحيتان ، اليونان وروما ، مكان « الجنة » على نحو ما . اما ان هناك شعوبا اخرى ، وقارات اخرى موجودة كذلك ، وهي تطالب بمكان لها تستحقه بكل جدارة ، ليس فقط في التاريخ العالمي ، بل كذلك في تاريخنا الغربي ذاته ، فهذا واقع لا نستطيع بعد ان نتجاهله في حقبة ننطلق فيها لغزو الفضاء .

والحق انه قد آن الاوان ، على ما يبدو ، للتحدث عن شعب طبع مجرى الاحداث العالمية بطابع عميق ، شعب يدين له بالكثير الغرب والانسانية قاطبة ، بالرغم من انك لن تجد في مئة مبحث تاريخي تقلبها الا اثنين يذكران اسمه . وحتى اليوم ، لا تزال دراسة تاريخ العالم ـ تاريخ الادب والفن والعلوم ـ تبدأ بالنسبة لكل طالب غربي ببحث سطحي لما كانت عليه مصر القديمة وبابل ، لتقف بعد ذلك وقفة طويلة عند اليونان وروما ، وبعد ان تلقي نظرة سريعة نحو الامبراطورية البيزنطية ، تنتقل الى القرون الوسطى المسيحية ، ومن هناك اخيرا الى العصور الحديثة . اما اوروبة ما قبل القرون الوسطى ، فانها لا تستوقف الانتباه قط ، شأنها في ذلك شأن الاحداث الخارجة عن التاريخ الاوروبي المعاصر للقرون الوسطى . فمنذا الذي يهتم بأن العرب ، الذين وقفوا في تلك الازمان على ابواب اوروبا ذاتها ، قد حملوا مشعل الحضارة ، طوال سبعمئة وخمسين عاما ، وانهم اذن قد عرفوا حقبة من العظمة والسناء اطول مرتين من حقبة اليونان ، وانهم في الحقيقة قد أثروا على الغرب تأثيرا اكثر مباشرة وتنوعا من تأثير هؤلاء ؟ ان التاريخ لا يعترف لهم ببعض الاهمية الا بالنسبة لدورهم تجاه اليونان : فهم الذين « نقلوا » الى الغرب كنوز الاقدمين . وهذه العبارة البسيطة التي تود ان تقدم واجب الاحترام للخدمة التي أداها العرب للغرب لا تنجح فعلا الا بتقليل شأنهم اذ تقصر دورهم على انهم مجرد وسطاء ، فيما هي تتجاهل الجوهري من اعمالهم .

والحق ان القضية ليست هي فحسب توسيع افقنا التاريخي ، وانما هي كذلك ، في الوقت الذي نلتمس فيه صديق الغد في عدو الامس ، اجتياز الحواجز القديمة التي بناها الدين ، والتدليل على تسامح اكبر ، والاهتمام بالكائنات البشرية ، فيما وراء قضايا العقيدة الدينية .

أيكون الوقت أبكر مما ينبغي بعد لانصاف شعب رفضنا ، بدافع من التعصب الديني ، حقه في حكم موضوعي عادل ، واستصغرنا انجازاته العظيمة بشكل نظامي ، وقنّعنا اسهامه الجوهري في حضارتنا وأخفيناه ؟ ان طبيعة العلاقات بين الغرب والعالم العربي ، منذ اعلان الاسلام حتى ايامنا هذه ، تظهر بشكل مثالي الى اي حد تستطيع العواطف والاهواء ان تملي طريقة كتابة التاريخ . ولقد كان ذلك شيئا يمكن ادراك اسبابه في وقت كان فيه كل تأثير مخالف للدين يعتبر غير مرغوب فيه ، لانه خطر . ولكن وجهة النظر هذه ، التي كانت تجوز بلا شك في العصور الوسطى ، ينبغي ألا تجوز اليوم . ومن المؤكد ان لونا من الاستياء ذا مصدر ديني ، وهو غير واع غالبا ولكنه عميق الجذور فينا ، يحد أفقنا ويجعلنا ننفر من أفراد أضفت عليهم الدعاية مظهر محركي الفتن ، وعاشقي الاصنام ، والسحرة . وما زال العهد حديثا بالجدال الضاري الذي بعثته قضية بسيطة تتعلق بأصول « المينسان » (١) ، والذي استطاع ان يعطينا فكرة عن مدى النفور الذي نحسه دائما في ان نقر وجود تراث عربي ، وعن الاهواء التي يمكن لهذا النفور ان يطلقها بعد في القرن العشرين .

لنعترف على الاقل ان هذا الجدال لم يكن ممكنا الا لان أفقنا قد بدأ يتسع رويدا رويدا ، بينما اخذت فكرة حكم عادل تشق طريقها شيئا فشيئا !

ان مصيرنا ربما كان ، عما قريب ، متعلقا تعلقا وثيقا بمصير العالم العربي الذي غير مرة من قبل وجه العالم . أفلم يئن الاوان ، والحالة هذه ، ان نتساءل ، فيما وراء ما يفصلنا ، عما يجمعنا ، وعما هو مشترك بيننا ؟

***

ان هذا الكتاب سيتحدث عن « العرب » وعن الحضارة «العربية» . لا عن الحضارة « الاسلامية » ، لان من المعلوم الواضح ان مسيحيين ويهودا وصابئة وزرادشتيين قد اسهموا في هذه الحضارة . ليس هذا فحسب ، بل ان عددا من اعظم انجازات تلك الحضارة قد تم ضد الاسلام الصحيح . والواقع ان عددا كبيرا من العناصر التي تشكل العبقرية المتميزة لهذا العالم الروحي كانت موجودة من قبل في شخصية

(١) قصيدة المجاملة في القرون الوسطى بألمانيا .

« العربي » في عهود ما قبل الاسلام .

ان هـــذا الكتاب سيتحدث عن « العربـي » وعن الحضـــارة « العربية » ، بالرغم من ان خالقي هذه الحضارة لم يكونوا جميعـــا مواطني تلك الامة التي سبق لهيرودوت ان سماها بـ « العربيوا » ، وانما كانوا ايضا فرسا وهنودا وسوريين ومصريين وبربرا وغوطـــا . ذلك ان جميع الشعوب التي كان العرب قد فرضوا عليها سلطانهـــم كانت موحدة بلغة ودين مشتركين ، هما اللغة والدين العربيان ، مثلمـا كانت موحدة بالطابع العميق نفسه الذي كانت العبقرية العربية القوية قد طبعتها به ، ومن هنا كانت وحدتها الثقافية ذات الانسجام الباهر .

واذن ، فان هذا الكتاب سيتحدث عن الحضارة العربية ، كما يتحدث المرء عن الحضارة الاميركية . فهو لن يصف الرازي او ابن‌سينا بأنهما « فارسيان » (وكلاهما متحدر من اسرة فارسية كانت تقيم منذ اجيال في البلاد العربية) ، كما ان احدا لن يفكر في ان يصف دوايت ايزنهاور ، الرئيس السابق للولايات المتحدة الاميركية ، بأنه «الماني» .

وغاية هذا الكتاب ان يفي العالم العربي دينا من العرفان قديـــم العهد جدا . وهو ، اذا تناول من اجل ذلك ، الحديث عن عدد كبيـر من التأثيرات المباشرة او غير المباشرة على الحضارة العربية ـ بالرغم من انه لا يستطيع طبعا ان يذكرها كلها ـ فذلك لا يعني اننا كنـــا مدينين لها بكل شيء ! كما ان ذلك لا يعني اننا نفكر باهمال أهميـــة التأثيرات اليـــونانية والرومانية والصينية والهندية واليهوديـــة او التقليل من شأنها . وكذلك لا نقصد انكار التطور الذاتي وقـــوة عبقرية الشعوب الجرمانية والرومانية التي عرفت ان تستمد من النتاج الاجنبي ما تحقق به ذاتها . ان كثيرا من الايدي قد نسجت بســـاط الحضارة الكبير ، وان كلا منها يسهم في العمل المشترك ويستحـــق بذلك عرفاننا .

الفصل الاول
تجميل الحياة اليومية

اسمحي لي ، يا سيدتي العزيزة ، أن أدعوك لتناول شيء مـــا في هذه « القهوة (١) ! انزعي « جاكتتك » (٢) وخذي لك مكانا عـــلى « الصوفا » (٣) ذات « المفرش » المغطى بقمـــاشة « قرمزية » . ان « القهوجي » سيعجل في تقديم فنجان من « القهوة » لك ، مع قطعتين من « السكر » ، الا اذا كنت تفضلين « قرافة » مـــن « الليموناضة » المثلجة ، او بعض « الكحول » ! تقولين لا ؟ ولكنك ستقبلين بكل تأكيد حلوى بـ « البرقوق » او بـ « الموز » !

ولكن بالطبع ، يا صديقي العزيز ، انك اليوم مدعوي ! فهـــل يمكنني ان اقدم لك في البدء « شرابا » من « النارانج » ؟ وأعتقد ان بعض « الارضي شوكي » سيكون مقدمة لذيذة جدا للطعام . وما رأيك بديك سمين مصحوب بـ « أرز » وفطائر بـ « الاسباناخ » ؟ اما لنهاية الوجبة ، فلن ابالغ بأن أوصيك بهذه الحلوى المزوجة « بالعرق » . وفي الختام ، فنجـــان من « المقهى » ... ولكـــن ارجوك ، اجلس على « الديوان » .

وبعد ، فلماذا تراك لا تحس الراحة والرضى ، في حين ان كـــل ما يحيط بك ، وكل ما اقـــدمه لك ، موجود على لائحة الحاجيـــات المجرودة منذ وقت طويل والتي هي جزء من حياتنا ، بالرغم من اننـــا استعرناها من عالم اجنبي ، هو العالم العربي ؟ ان « القهوة » التـــي تتناولها كل يوم بحجة انها تحرضك على العمل ، و « الطاس » الذي تصب فيه ذلك المشروب الأسود ، و « السكر » الذي لا تستطيع بدونه اليوم ان تتصور لائحة الطعام ، و « الليموناضة » و « القرافـــة » و « الجاكيت » و « المفرش » ، انما ينبغي ان نعترف بأنها للعـــرب . وليس هذا كل شيء ! فان هذه الحاجيات في مجموع العالم المتمدن كله تقريبا لا تزال تحمل اسمها العربي ... وكذلك الامر بالنسبـــة لـ « قندي » (٤) و «برغموت» (٥) و «النارانج» و «الكشك» (٦) الخ.. الثمار التي يرجع اصلها الى البلاد الحارة (وكذلك بعض الاطعمـــة والاشربة) ، فلماذا تريد منها ألا تحافظ ، في هذه الحالة ، عـــلى تسميتها الاصلية ؟

وحين تعترف بأنك ، اذ تكون ميتا من التعب ، تتمدد عـــلى « الصوفا » و « الديوان » والعثمانية » او في « القبة » ، فانك انما تؤكد لي ان اي صبي يستطيع ان يتعرف الاصل الاجنبي لكلمات غريبة كهذه الى هذا الحد . ولكن هل تعرف انك استعملت ، على غير علـم منك ، كلمة آتية من لعبة « الاشكمات » (٧) ، (وهي لعبة علمنا اياها العرب ، باعتبار ان مبعوث هارون الرشيد ادخلها ، كما يقال ، الـــى قصر شارلمان) ، وان اصل كلمة « اشكمات » هو « شاه » (الملك) وان الكلمة كلها تعني ببساطة : الشاه مات ؟

وهل كنت تعرف بعد ذلك ان اكياس « الماروكين » (٨) التـــي تراها في هذه الحوانيت ما تزال تحمل خاتم العرب ؟ اما الاقمشـــة المعروضة فيهذه الواجهة ، بالاضافة الى «القطنيات» و «الموسلين» (٩) و « الموهير » (١٠) الاملس الازغب ، فبوسعك ان تختار منها ما يروقك

(١) الكلمات الموضوعة بين أهلة هي الكلمات العربية التي اصبحـــت شائعة في اللغات الاجنبية مع بعض التحوير (هامش المترجم)

(٢) هذه الكلمة الاجنبية مشوهة من الكلمة العربية « شقة » وهـــو الثوب المستطيل (هـ م)

(٣) وأصلها في العربية « الصفة » وهي المقعد المظلل (هـ م)

(٤) أي سكر القصب ، و « القند » في العربية عسل قصب السكـــر اذا جمد (هـ م)

(٥) نوع من الاجاص الطري (هـ م)

(٦) نوع من العرق ، هو بالعربية « ماء الشعير » (هـ م)

(٧) وهي لعبة الشطرنج (هـ م)

(٨) من كلمة مراكش ، وهي جلد الماعز المدبوغ (هـ م)

(٩) وهي أقمشة الموصل (هـ م)

(١٠) كلمة انكليزية مأخوذة من كلمة « مور » العربية وهـــو جنس من الخراف ذو صوف لين (هـ م)

صدر حديثا :

تأليف
غسان كنفاني

البـــاب

مسرحية

دار الطليعة ـ ص. ب ١٨١٣ بيروت

من « السانان » (١١) الانيق ، او « التفتا » (١٢) الباذخ او « المور » المتلالىء ، او « الداماس » الفخم (نسبة الى دمشق) وكلها تعرض تحت ناظريك مجموعة كاملة من فروق الالوان والاشكال ، ابتداء من « الصفران » (١٣) الاصفر حتى « الليلا » (١٤) ، مرورا « بالنارانج » و « القرمزي » . وتلك كلها دعوات ناعمة الى ان تذكر اولئك الذين ندين لهم بافمشة مفيدة بقدر ما هي ثمينة ، بالوانها الفاقعة ، اقصد « العرب » .

أتراك تعرف انك حين تدخل صيدلية ، تجد فيها كمية من الاختراعات العربية ؟ ان نظرة واجدة الى صناديق « الدورقي (١٥) وزجاجاته تكفي لاقناعك : فانك واجد فيها « المسك » و « الكمون » و « الايسيتراغيون » (١٦) و « الزعفران » و « الكامفر » (١٧) و « الينزين » (١٨) و « القالي » (١٩) و « البورق » (٢٠) و «السكرين» و « الامبر » (٢١) وسواها من العقاقير والطيوب العربية التي تستعملها يوميا او تدري اننا ما نزال نستعمل بالاسم العربي « اللاك » وهو الطلاء الذي نغطي به اظافرنا ، وان كلمات الانيلين والفز (قماش من غزة) و « النيلك » (٢٢) والقطن هي كلمات عربية ؟

واذن ، فانك لن تستطيع ان تنكر ، اكثر مما فعلت ، ان العدد الكبير من الاسماء العربية التي تزين لغتنا هي اسماء حاجيات لاستعمالنا الجاري كشف لنا العرب عن وجودها . كما لا تستطيع ان تنكر ان هذه البضائع قد اضيفت على حياتنا اليومية ، التي كانت تافهة ، بل قذرة بعض الشيء ، ملاذ رقيقة كثيرة جملتها تماما ، وحسنتها باللون والعطر ، كما لا تستطيع ان تنكر ان حياتنا هذه مدينة لهم بانها اصبحت اكثر صحة وسلامة ، وفي الوقت نفسه أغنى بالراحة والانانة ...

غرب معوز في ظل التجارة العالمية

نجن في عام الرحمة ٩٧٣ . وهذه سفينة تجاذي الشاطىء الغربي لفرنسا ، وتجتاز رأس « غري ـ نيه » متجهة نحو الشمال الشرقي . وكما فعلت في « بوردو » و « روان » ، فانها ستفرغ في « اوترخت » و « سليسيفيك » (٢٣) حمولتها الثمينة المكونة قبل كل شيء من زيت الاندلس ، وكذلك من حجر الشب القشتالي الذي يستعمل للدبغ ، ومن تين « ملقة » وخمرها ، ومن الفلفل والحبال . وهذه السفينة تحمل كذلك ، على رأس اعضاء سفارة الحكم الثاني ، خليفة قرطبة ،

(١١) من كلمة « زيتون » العربية ، وهي بلدة في الصين مشهورة بصنع هذا النوع من الحرير (هـ.م)

(١٢) كلمة فارسية معربة ، وهو نوع اخر من الحرير (هـ.م)

(١٣) وأصله العربي « زعفران » (هـ.م)

(١٤) وأصله العربي « ليلك » (هـ.م)

(١٥) صانع الدوارق وهي الاباريق التي توضع فيها الادوية والعطور ، ويقابلها باللغة الاجنبية « دروغ » (هـ.م)

(١٦) وأصله العربي « ترخون » (هـ.م)

(١٧) وأصله العربي « كافور » (هـ.م)

(١٨) من «بنجوان» المركبة من كلمتي « لبان جاوي » وهو صمغ الصنوبر الذي يستعمل كمستحضر طبي (هـ.م)

(١٩) وأصله العربي « القلى » وهو شيء يتخذ من حريق نبات الحمض (هـ.م)

(٢٠) مثل ذلك بالعربية ، وهو النطرون (هـ.م)

(٢١) وأصله العربي « العنبر » (هـ.م)

(٢٢) وأصله العربي « الطلق » وهو ذرور معدني لطيف المجس (هـ.م)

(٢٣) مدينتان من مدن البلاد الواطئة (هـ.م)

((فلسطين))

موضوع العدد الممتاز القادم

الذي يصدر اخر شباط (فبراير)

سيدي ابراهيم بن احمد الطرطوشي .

والواقع ان على اعضاء هذه السفارة ان يبلغوا في «ساكس» (٢٤) قصر « هوتو » امبراطور الغرب الروماني الشهير . ذلك ان «اوتون» الاول الكبير ، امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة ، كان قد وصل الى « كادلنبورغ » في « الهارز » (٢٥) ، عائدا من روما ، حيث حضر زواج ابنه من « تيوفانو » ابنة الامبراطور اليوناني الراحل رومان الثاني ، كما حضر في الوقت نفسه حفلات تتويجهما المرهقة . وكان قاهر نهر « الليش » ، مجدد الامبراطورية الغربية ، في اوج قوته ومجده . وكان مبعوثون من الدانمرك ، ومن بولونيا ، ومن الشعوب السلافية ، ومن بوهيميا ، ونواب من اليونان وبلغاريا وهنغاريا وايطاليا يتزاحمون في قصر « كوادلنبورغ » الامبراطوري ليقدموا التحية الى سيد الغرب الاكبر .

وفي مطلع نيسان ، نقل الامبراطور قصره الى « ميرسبورغ » . والى ذلك القصر قدمت بعثة « امير المؤمنين » التي غادرت الاندلس وعلى رأسها ابراهيم بن احمد الطرطوشي ، لتقدم آيات التشريف لامير المسيحية الاول .

وقابل الامبراطور اوتون الاول ضيوفه العرب مقابلة ودية لطيفة ، وقبل هداياهم ، وهي أثمن ما تلقى من هدايا . وكان هذا الاستقبال للبعثة العربية واحدا من اخر الاعمال الرسمية التي قام بها الامبراطور . فبعد ان استأذنته البعثة في السفر ، محملة بالهدايا الامبرية هي ايضا ، انقضت بضعة ايام قبل ان يغمض السيد الكبير عينيه في « ماملوبان » .

وعاد السياسيون المغاربة الى وطنهم بطريق البر . وقد قادت رحلة العودة هذه الطرطوشي الى « مايانس » عن طريق « سويست » و « بادربورن » و « فولدا » . وهناك حدث شيء ذكّره ، على نحو مؤثر ، مسقط رأسه . ففي تلك المدينة من مدن « فرانكونيا » ، الواقعة على ضفة نهر يسمى « الران » وضع احد الباعة درهمين عربيين في يده . فشدّه وهو يتفحص حروفهما الكوفية ، وقرأ اسم الذي ضرب النقد وتاريخ سكّه : ٣٠١ و ٣٠٢ بعد الهجرة ! لم يبق ثمة ادنى ريب : فقد كان يحمل في جوف يده قطعتين ذهبيتين من سمرقند مسكوكتين قبل ذلك بستين عاما ! وصرح بقوله : « لا بد ان هاتين القطعتين صادرتان عن سلالة نصر بن احمد الملكية » . ولكن مفاجأته لا تقف عند هذا الحد .

« ان من الغريب كذلك ان نكشف في مايانس ، في ابعد مناطق الغرب ، توابل لا توجد الا في أقصية الشرق ، ، مثل الفلفل والزنجبيل وكبش القرنفل والكوستوس (*) والغالنغا (*) » .

ولا شك في ان دهشته كانت ستبلغ ذروتها لو اتيح له ان يرى كشف السلع التي كان الاخ ، وكيل التموين في دير « كوربي » في مقاطعة « السوم » ـ اي في اخر الدنيا تقريبا ـ قد اعتاد على شرائها لطبخه في مدينة « كامبري » الاسقفية التي تبعد سبعين كيلومترا .

(٢٤) منطقة من مناطق المانيا الشرقية (هـ.م)

(٢٥) منطقة جبال كثيفة في المانيا الوسطى (هـ.م)

كان سيقرأ على هذه اللائحة ما يلي :

٦٠٠ ليبرة من الشمع ـ ١٢٠ ليبرة من الفلفل ـ ١٢٠ ليبرة من الكمون ـ ٧٠ ليبرة من الزنجبيل ـ ١٠ ليبرات من كبش القرنفل ـ ١٥ ليبرة من القرفة ـ ١٠ ليبرات من البخور ـ ١٠ ليبرات من اللادن ـ ٣ ليبرات من الصبر ـ ١٠ ليبرات من الكوستوس (*) ـ ١٠ ليبرات من الغالنغا (*) ـ ١٠ ليبرات من الفطر ـ ١٠ ليبرات من البوميكار (*) ـ ١٠ ليبرات من النكهة المهدئة ـ ٥ ليبرات من الكوتزمير (*) ـ ٣ ليبرات من الاوبرمانت (*) ـ ٣ ليبرات من العندم ـ ٣ ليبرات من المعدن الابيض ـ ليبرتان من التيمياما (*) .

ولا بد للتوابل ، بما فيها ورق الشالبية ، وللنباتات الطبية والافاويه التي كانت تخزن بهذه الميات في اقبية الدير ، من ان يقوم معظمها برحلة طويلة « من كهوف الشرق حتى ابعد مناطق الغرب » ، وقد كانت تلك سلعا كان استعمالها اليومي يشكل ضرورة طاغية ، حتى ان اكليروس الكنائس التي لا عد لها كانت تسود الدنيا في عينيه حين كانت النقصه منتجات الجزيرة العربية هذه ، والتي كان الرهبان انفسهم لا يستطيعون الاستغناء عنها على المائدة .

ومع ذلك ، فقد وجب عليهم ان يتخلوا مدة طويلة عن نعم الشرق هذه التي قدروها كل التقدير .

فالواقع ان لائحة «كوربي» يرجع تاريخها الى عصر الميروفنج (٢٦)، وقد نظمت قبل ثلاثمئة عام تقريبا من رحلة الطرطوشي . وطوال هذه الاعوام الثلاثمئة ، سال كثير من المياه في اودية « الران » و « السوم » وقد عرف عالمنا في هذه الفترة من الزمن كثيرا من التغيرات الكبيرة ، لعلها اكبر مما عرفت جميع القرون السابقة . وهي اكبر فعلا من التي احدثتها هجرة الجرمان المنحدرين من الشمال ليكتسحوا « الامبراطورية الرومانية » ، واكبر من تلك التي أعقبت سقوط الامبراطورية الرومانية المقدسة المؤسسة على وحدة الشاطىء المتوسطي .

اللهم الا ان تكون غزوات الجرمان قد أحدثت ، على عكس ذلك حقا ، تغيرات حاسمة ؟ والا ان تكون شعوب « الشمال » قد قلبت النظام القديم ، وحطمت وحدة المدينة القديمة ؟ كلا ، وانما كانوا مكملي ذلك النظام ما داموا قد اندمجوا في الوضع القائم . او تكون الوحدة الدينية قد تزعزعت بسبب سقوط « الامبراطورية » القديمة .

وقيام السلطة القائدة الجديدة « لامبراطورية الشرق » ؟ وهل شقت الوحدة الاقتصادية لحوض المتوسط ؟

بل الامر على العكس . ان تجارة الشرق التي كانت في الماضي تصب ، عن طريق « اوستي » (٢٧) ، في المتروبول الروماني ومرفأ مرسيليا ، هي في ذلك الحين اشد ازدهارا من اي وقت ، وهي تمتد الى ابعد مما كانت سابقا : انها تتجاوز جبال الالب ، وتبلغ ـ عبر بلاد الفول ـ كامبري وقلب جرمانيا . صحيح ان روما ليست بعد هي التي تنظم مجرى الاحوال ، بل هي بيزانس . وصحيح ان العالم القديم متعب داخليا وفاسد . ولكنه ـ خارجيا ـ ظل سليما .

وان وحدته لن تحطم حقا الا حين يحتل الغزو العربي احتلالا محكما شرق حوض البحر الابيض المتوسط وجنوبه وغربه ، بعد ان ينطلق من جنوب الجزيرة العربية يدفعه النبي محمد وينظمه ، ممتدا على طول شواطىء المتوسط حتى الاطلنطيك .

وستكون نتائج ذلك عظيمة جدا . ان انتصار الاسلام سيقلب رأسا على عقب حياة عالم ملتفت منذ الف عام واكثر نحو الشرق . وتجاه الهجوم الاسلامي ، يسدل الغرب ستارا حديديا يسجن نفسه خلفه سجنا محكما لعدة قرون . وللمرة الاولى ، تنتصب الامبراطورية العالمية العربية بصفتها « شرقا » في وجه « الغرب » مجبرة اياه على ان يعزل نفسه (٢٨) .

« لا يغامرن احد في سوريا ولا في مصر » ذلك هو الامر القاسي الذي أملته روما والقسطنطينية . ولقد انجزت الدعاية عملها الانفصالي . اما ان يستطيع المسيحيون ان يتابعوا ، بلا حادث ، سفرهم للحج الى قبر المسيح في القدس ، واما ان يسلم الخليفة هارون الرشيد الى الامبراطور شارلمان ، بواسطة بطرك القدس (الذي يتابع اعماله بكل حرية) مفاتيح المدينة المقدسة وينقل اليه حماية الاماكن المقدسة ، فذلك لا يمنع في اللحظة نفسها من اتهام « الكفار » بتدنيس هذه « القدس » نفسها ، وذلك من اجل بث الذعر في نفوس المسيحيين الصالحين ، وانتزاع كل رغبة لديهم في السفر . هذا في الوقت الذي كان فيه التجار العرب لا يحسون ـ بكل تأكيد ـ اية حاجة لهم بالاتجار مع الغرب ، اذ ان « الشرق » ظل مفتوحا لهم ، بما في ذلك الهند والصين . ثم ان الذين يحاولون ان يحاذوا شواطىء اوروبا الجنوبية ، ليسوا هم التجار والباعة ، وانما هم القراصنة وحدهم .

(*) جميع الكلمات التي تليها هذه النجمة غير موجودة في المعاجم الكبرى التي نرجع اليها ، ومنها « دائرة معارف لاروس » الكبرى . ولكن القارىء يستطيع ان يستنتج انها تدل على انواع من التوابل والنباتات (هـ.م)

(٢٦) نسبة الى ميروفيه ، ملك الافرنج من ٤٤٨ الى ٤٥٨ ، وقد قاد الافرنج في معركة السهول الكاتالونية حيث هزم اتيلا . واعطى اسمه الى ملوك الافرنج (هـ.م)

(٢٧) مرفأ روما القديمة ، قرب مصب التيبر ، وهو اليوم مردوم بالطمي (هـ.م)

(٢٨) « لقد حطم الاسلام وحدة الحوض الابيض المتوسط التي لم يستطع الغزو الجرماني ان يهدمها . وذلك هو الحدث الرئيسي للتاريخ الاوروبي منذ حروب روما وقرطاجة . وهو يعني نهاية العصور القديمة ، وفي اللحظة نفسها التي كانت فيها اوروبا تتهيأ لتصبح بيزنطية ، بدء العصور الوسطى (هنري بيران : مولد الغرب ـ محمد وشارلمان ص ١٥٨)

صدر حديثا :

تأليف
الدكتور عبد الجبار الجومرد

داهية العرب

ابو جعفر المنصور
مؤسس الدولة العباسية

دار الطليعة ـ بيروت ص. ب ١٨١٣

وها ان المرافىء التي كانت تدخل منها البضائع القادمة من الشرق ، هي بعد الان جرداء ، والمستودعات فارغة ، والاقبية خالية في « كوربي » حيث كف الاخ الطباخ عن ان يضع على المائدة الا الوانا بائخة من حساء الملفوف . ليس ثمة بعد اي تاجر يعرض الفلفل او الزنجبيل او الخمر ، او حتى الحرير . ليس ثمة بعد شيء مما يجمل الحياة ويتبل الوجود . بل ان وضع التجارة نفسه قد اختفى : لم يبق شيء بعد للتجارة . ان الفلاح يؤجر الفلاح حبوبا او ماشية ، ونادرا دراهم فضية . واما الذهب ، فهو لا ينتقل بعد الى اي يد . لقد تقبل الوجود الفقر والحرمان والسلامة .

وكان لا بد للكنائس نفسها من ان تحرم ذاتها مما هو اساسي . فاذا بالبخور والخمر وزيت الاضاءة منتوجات لا يعثر عليها بعد . وفي المستقبل ، سوف يستعمل ثمة « بديل دون » : شمع النحل البري . وأجتزأ البابا « بونيفاس » بالهدايا المتواضعة التي كان أصدقاؤه في روما يقدمونها له ، تارة بعض البخور ، وطورا قبضة من القرفة ، وأحيانا بعض الكوستوس المعطر ، او نموذج من الراتينج المستخرج من شجرة بلسم عربية ، وكلها سلع ربما جاء بها يهودي يعرضها في المتروبول المسيحي .

والواقع ان اليهود وحدهم ، سواء أكانوا تجارا بالجملة ، او مبعوثي الكارولنج (٢٩) ، هم الذين كانوا ما يزالون يقيمون ظاهرا من الصلة بين الشرق المسلم والغرب المسيحي . ولم يكن ثمة مكان لا يلتقو نفيه اشخاصا من دينهم يبدون كل استعداد لمساعدتهم ، ثم انهم كانوا ، كما يلاحظ ابن قرطبة الذي كان حوالي عام ٩٠٠ رئيس الشرطة والبريد في العراق « يتحدثون الفارسية والرومانية والعربية والفرنجية والاسبانية والسلافية . وكانوا بطريق البر والبحر يتنقلون بين الشرق والغرب ، وبين الغرب والشرق ، مجتازين اسبانيا ومتجهين نحو مصر عن طريق « سوتا » (٣٠) . وكانوا ينقلون من الغرب الى الشرق خصيانا وعبيدا وصبيانا وحريرا (من بيزنطة) وفراء وسيوفا . ويركبون البحر من بلاد الافرنج على الشاطىء الغربي ويمضون حتى يبلغوا « فاراما » (مرفأ يقوم بجوار بور سعيد الان) ... وفي طريق العودة يحملون سفنهم جوز الطيب ونبات المقر ، والكافور ، والقرفة ومنتوجات اخرى من بلاد الشرق » .

ولكن هذه ، بالنسبة لاوروبا ، ليست الا قطرات ماء في البحر . ان سواد البشر لا يستطيع ان ينعم بأي من هذه المنتوجات التي تبلغ ، في « السوق السوداء » ، اثمانا باهظة . من اجل هذا كانت للطرطوشي اسباب وجيهة لكي يندهش من وجود توابل شرقية في مدينة مايانس .

***

والواقع ان البلاد المسيحية كانت تقوم ، في عهده ، على هامش تجارة شرقية مزدهرة اشد ما يكون الازدهار ، فهي تعبر بحر قزوين ، وتصعد مجرى الفولغا وتشع حتى الشمال الوثني ، باللغة جميع شواطىء بحر البلطيق وجزره . وقد ردت لنا ارض البلاد الشمالية الوفا بل ملايين من النقود العربية التي يرجع عهدها الى القرون التاسع والعاشر والحادي عشر : وكلها شواهد على الاشعاع العالمي للحضارة العربية ولتجارة لم يكن اي حكم ديني مسبق يعترضها . وكان القائمون على هذه التجارة هم من السكانديناف او النورمانديين الذين كانوا يهبطون ، في بعثات جريئة ، من النروج وايسلندا والسويد والدنمرك ، ليتوغلوا في الشرق . وهكذا أسسوا « دولة » قوية في مساحات روسيا الشاسعة التي هي مدينة باسمها لاولئك الاسياد القدامى الذين كانوا يدعون « هرو » او « روس » .

كانوا محاربين وتجارا في وقت واحد ، وقد اسسوا وكالات تجارية كبيرة : منها « نوفغورود » و « كياف » . وقد اوصلوا حتى جزيرة « توليه » (٣١) الاقمشة واللباد والزينات الفضية والصدف والاسلحة والكلاليب والتوابل الصادرة من المقاطعات العربية . وبالمقابل كانوا يحملون الى العرب العنبر الاصفر ، وريش الحوت ، وصمغ السمك وخشب الجرمشق ، ولحاء شجر البتولة ، وصقورا حية للصيد ، وفلانس من جلد الثعلب الاسود وكميات هائلة من الفراء الباذخة . « كانت تصلنا على ظهر الحمير قبعات مصنوعة من وبر القندس والسمور بكميات كان احصاؤها مستحيلا ، وكذلك جلود القاقوم التي كان ثمنها مرتفعا جدا ، وجلود الثعلب الاحمر ، كما كانت تصلنا مهور لم تحدد أقدامها بعد ، وجلود أوس كانت تضيء غرفة النوم كالنهار حين يخترق ظلمة الليل » .

على ان دولة الخازار (٣٢) الصغيرة كانت تمتد بين امبراطورية الروس والامبراطورية العربية وامبراطورية الشرق الرومانية . وكانت منذ قرون قد استقبلت اليهود المطرودين من الشرق الادنى ، وكانوا ملوكا يهودا اولئك الذين كانوا يحكمون هذا الشعب المؤلف من يهود ونصارى ومحمديين ووثنيين . وكانت عاصمتها « ايتيل » الواقعة على بحر قزوين تشرف على مصب الفولغا ، وكان لذلك اهمية رئيسية بالنسبة لتجارتها ، لان غنى هذه الدولة الضخم كان يرتكز على حقوق المرور والجمرك التي كانت تتقاضاها على البضائع من حيثما أتت .

ومنذ ان نجح الامبراطور اوتون الاول في وقف شر عشائر « الماغيار » (٣٣) التي كانت تكتسح القارة ، استطاع فرع من التجارة العربية ـ الشمالية المزدهرة ان يشق اخيرا طريقا له ، فيما وراء دولة « الخازار » ودولة النورمنديين « الروس » حتى أديرة اوروبا الوسطى ومدنها . ذلك ان طرقا تجارية كبيرة كانت قد بدأت تفضي الى براغ ، كما يخبرنا اليهودي ابراهيم بن يعقوب الذي قام برحلة في البلاد العربية انتهت به الى « ميرسبورغ » لدى «ملك السكسون هوتو » في الوقت نفسه الذي وصلت فيه بعثة الحكم الثاني . « كان الروس والسلافيون يأتون من كاركوفيا الى براغ وهم يحملون بضائعهم، بينما كان المحمديون واليهود والاتراك يصلون اليهم حاملين سلعا ونقودا متداولة ليشتروا منهم العبيد والقصدير ومختلف الفراء » .

ولعلهم الروس انفسهم او البراغيون ، هم الذين حملوا الى « مايانس » التوابل الفاخرة والقطع النقدية العظيمة التي استطاعت في عام ٩٧٣ ان تحرك عواطف الطرطوشي العربي ، مذكرة اياه بمسقط رأسه في قلب بلد اجنبي بعيد .

البندقية تكسر الحصار

في هذه الاثناء ، بدأت تتجهز للتجارة قوة صغيرة ، على غير علم من شعوب الداخل ، وسوف تحرز ، على هذه الارض ، اعظم الانتصارات . ان « ميتامـوكو » ، المدينة المبنية وسط بحيرات الادرياتيك ، والتي كنستها الحروب والبحر في وقت مبكر ، سوف تنبعث في جزيرات « الريالتو » تحت اسم « البندقية » ، وهو اسم سيحميه بعد الان سيدها القديس مارك الذي كانت عظامه قد نقلت خفية من مصر . وكان وضعها الجغرافي يوجهها بصورة طبيعية نحو التجارة . ولن تلبث هذه التجارة ، التي كانت مقصورة في البدء على اشياء قليلة ، كالملح والصيد ، ان تعرف بسرعة ازدهارا لا مثيل له .

(٢٩) الجيل الثاني من ملوك الافرنج (٧٥١ ـ ٩٨٧) (هـ م)

(٣٠) مرفأ مراكشي على البحر المتوسط (هـ م)

(٣١) وهو الاسم الذي أطلقه الرومان على جزيرة تقع في شمال اوروبا (ايسلندا) وكانت تعتبر الحد الشمالي الاقصى للعالم المعروف (هـ م)

(٣٢) شعب صغير كان يعيش شمال بحر قزوين وقد حكم جزءا من ارمينيا ثم القرم حتى القرن الحادي عشر (هـ م)

(٣٣) شعب الاورال والالتا المتحدر من مستوطني الاورال ، وقد استقر في هنغاريا في القرن التاسع (هـ م)

ان افضل اسلحة المدينة هي من جهة عبقريتها التجارية ، ومن جهة اخرى بضائع الشرق والغرب التي هي مادتها . اما نصرها ، فكان غنى اسطوريا ، فريدا في الغرب ، وشبه مساو لغنى العرب .

كان البحر ، على اثر انتشار الاسلام ، يكون حدا بين عالمين ، وكانت البندقية التي ألقت بينهما جسرا ، هي التي تتيح من جديد للشرق ان يغرق بكنوزه ، المأسوف عليها ان لم تكن بعد المجهولة ، غربا فقيرا معوزا .

والواقع ان البندقية مرتبطة بامبراطورية الشرق ، وقد تمكنت هذه الامبراطورية ، التي لم تهزم في البحار ، ان تحافظ على حرية مواصلاتها مع مرتكزاتها الايطالية . ولكن امبراطور القسطنطينية بعيد ، في حين ان امبراطور الافرنج قريب قربا خطرا . ولقد طلب العاهلان كلاهما حظوة البندقية ، بالتهديد عند الحاجة . ولكن البندقية لعبت ، في وقت واحد ، على الصعيدين ، وكانت ترتقي ، بفضل لعبة التوازن هذه ، سلم الاستقلال درجة درجة ، ريثما يستطيع رئيسها ان يعامل امراء الارض الاخرين معاملة الند للند .

واستطاعت البندقية آنذاك ، وقد غرقت في التكريم والمجاملة ، ان تسمح لنفسها بالتلفت نحو آفاق اخرى . انها ، بفضل رحلات سفنها المتعددة في البحر الابيض المتوسط ، ستهتم بالموانىء العربية التي كان غناها واضحا للعيان . وهذا ، بالرغم من انه لا يليق بمدينة مسيحية ان تدخل في علاقات مع « الكفار » . ولكن هل ترددت نابولي في ان تعطي العرب مساعدة خفيفة ، اذا لم نقل اكثر من ذلك ، عند فتحهم لصقلية ؟ أولم تعقد « بيزا » اتفاقات مع الاسماعيليين ضد جنوى ؟ ونابولي نفسها ، ألم تتحالف معهم ضد منافستها « امالفي » ؟ وسفن « امالفي » من جهتها ، ألم يبلغ بها ان هاجمت الشاطىء الروماني مع سفن الكفار من غير ان ينجح اي تهديد بالحرم البابوي في تنيها عن ذلك ؟ ان القضية اجمالا ، بالنسبة للبندقية ، هي قضية عمل سلمي محض ! ومن جهة اخرى ، اي شأن للتجارة بالدين ؟ ما دخل سيدة البحار الفتية هذه حتى تتورط بالتواءات السياسة التي كان يتبعها عجوز « البوسفور » المتقلب ؟

أكان عليها ان تخضع بكل بساطة وهدوء لازعاجات اللجنة التي تفتش ، بناء لاوامر الامبراطور يوحنا تزيمسكيس ، السفن المستعدة لمغادرة مرفأ الريالتو ، حتى تتأكد من ان حمولتها لا تضم أسلحة ولا خشبا ؟ لا ريب في ان غضب الامبراطور البيزنطي الذي أثارته أخيرا هجمات الخليفة الفاطمي لا يمكن ان يكون أعنف من الغضب الذي يحس به تجاه البندقيين الذين كان يعرف من مصدر موثوق انهم يدعمون « الكفار » ، اعداءه ، بأن يقدموا لهم الاسلحة وكذلك الاخشاب التي تستعمل لبناء سفنهم الحربية . وقد بلغ به الامر ان هدد باحراق كل سفينة تكتشف بضائع تهريب على ظهرها !

غير ان البندقيين لم تكن لديهم اية رغبة في ان يعرضوا للقطع رأسا كانوا على وشك ان يسندوه الى وسادة من مخمل وحرير . وقرر رئيس البندقية ان يلجأ الى المكر ، لكي يسبق الامبراطور . فعجل في ابرام مرسوم يمنع بيع الاسلحة تحت طائلة الاعدام ، وقصر بيع الخشب على الانواح التي لا يتجاوز طولها خمسة اضعاف نصف قدم (وهو مقياس غير مشتبه به !) وكذلك على المغارف والقصاع والاوعية الخشبية التي تستعمل لغسل الثياب . ومن جهة اخرى ، سارع رئيس البندقية بابلاغ لجنة الرقابة بأن الخشب لم يحتل في الحقيقة اي مكان هام في تجارة البندقية ، وان احدا ، بالاخص ، لم يفكر في بيعه للخليفة ! ولكن لا شك في ان ثلاث سفن كانت ، قبل وصول سادة القسطنطينية هؤلاء بقليل ، قد ابحرت بحمولة من الخشب ذي اللحاء ... غير ان اثنتين منها اتجهتا نحو « مقديشيو » في تونس ، بينما أخذت الثالثة طريقها نحو طرابلس الغرب . والذي حدث هو ان الاذن بتحميل هذه السفن انما أعطي بدافع من الاحسان المسيحي نحو عمال المرفأ ، وهم جد معدمين ، وليس واردا على الاطلاق اعطاء أي قطعة من حمولتها للمشرق !

والحق ان كتاب القرن العاشر العرب سيؤكدون هذه الواقعة : ان البندقية وأمالفي وتدمر ومسينا انما تتاجر مع عرب افريقيا الشمالية . فسفنهم تدخل الى اوروبا ، عن طريق القيروان ، وسوسه ، وقابس ، ستورا حريرية ، وأخونة مذابح ، وأقمشة سوداء وألبسة زرقاء لازوردية . ولا يزال من يزور اليوم « مونت كاسينو » وبعض الاديرة او الكنائس في شبه جزيرة « الابنين » يتأمل باعجاب بعض الاحجار الكريمة الاتية مباشرة من البلاد العربية .

ولكن « الشمال » يبقى محروما من هذه البضائع . اذ من يستطيع ان يعبر بها جبال الالب ؟

في تلك الفترة ، وقع حدثان كبيران غيرا الوضع تغييرا عميقا .

ففي عام ٩٦١ ، أنهت بيزنطة السيطرة العربية على جزيرة كريت . وعلى ذلك ، اصبح طريق « المشرق » حرا ، ولم يبق ثمة مبرر لاي قرار امبراطوري او بابوي ان يمنع ايا كان من عقد علاقات تجارية مع عرب الشرق ، او الافادة من اتساع تجارتهم ونمو ثروتهم الدائم . وهكذا سجل رئيس البندقية بطرس الثاني اورسيلو تسلمه السلطة عام ٩٩١ بأن ارسل بعثات الى جميع الامراء العرب الذين كان حريصا على ارضائهم من اجل صالح البندقية . وما لبثت سفن البندقية وجنوى التجارية ان حاذت شواطىء سوريا ومصر بطريقة منتظمة . وبلغ الامر بالخليفة الفاطمي المستنصر ، صديق المسيحيين ، ان تنازل عن حي برمته للحجاج والباعة .

وقد كان لهذا التدبير نبريره ، لان قوافل من السفن كانت ، في مطلع ايلول من كل عام ، حين يبدأ الحر الشديد في الانحسار ، تغادر مرفأها الايطالي ، وبعد اربعة اسابيع او خمسة تلقي مرساتهـا في « المشرق » . ولا تنصب الاشرعة من جديد ، لرحلة العودة ، قبـل منتصف الربيع . وهكذا يقضي الباعة الشتاء كله في الشرق . وهم يتجهون من سوريا وفلسطين الى بغداد ، بل حتى الخليج الفارسي ، الا ان يقصدوا مباشرة القاهرة او الاسكندرية ، حيث تفضي تجـارة التوابل الثمينة ، ينبوع الارباح الكبيرة ، قادمة من الهند ومدغشقر . (من اجل هذا يحاول الصليبيون فيما بعد ، بدورهم ، ان « يفتحـوا فلسطين لمصر ») .

اما الذي لا يكون متعاقدا للعودة على ظهر السفينة نفسها ، فقد كان احيانا يمدد غيبته بضعة اعوام . وأيا ما كان ، فلم يكن ثمة تاجر بندقي او جنوي الا ويقضي على الاقل ستة اشهر من العام بيـن العرب ، متعرفا في الوقت نفسه عـلى طريقتهم في العيش وعـلى حضارتهم . ولذلك ، فان هذا التاجر حين يصعد ثانية الى ظهـر سفينته ، يعود الى وطنه بأكثر من الحمولة المشتراة في تلك الاثنـاء ، بأكثر من قطن سورية ، ونسيج انطاكية ، وزجاج صور ، وخبز طرابلس السكري ، وبأكثر من الفلفل والقرفة وجوز الطيب والكافور والبخور والصبـر والنيلج وحجر الشب وخشب الصندل الذي تقدمـه الوكالات المصرية .

واذ تكون التجارة ، بفضل هذه السلسلة من الاحداث ، قـد استؤنفت مع « الشرق » ، يكون أوتون الاول من جهته ، بعد انتصاره على « الليش » عام ٩٥٥ ، قـد ابعد نهائيا تهديد غزو العشائـر « الماغيار » المستمر ، ورد الامن بذلك الى المدن والضواحي والـى طرق اوروبا . وآنذاك اصبحت شعاب جبال « الالب » طرقا مسلوكة جدا . ومنح الامبراطور حق اقامة الاسواق وسك النقود الى عدد من المناطق القائمة عند اقدام الالب وحول بحيرة « كونستانس » وعـلى طول المجرى الاسفل للران . فاذا الطريق مفتوحة ، بعد الان ، للبضائع المودعة في البندقية لكي تتجه نحو الشمال .

ولكن اذا كان الايطاليون يجتازون البورغوني وفرنسا والفلاندر ليبيعوا فيها بضاعتهم ، فانهم بالمقابل لم يكونوا يرون في المانيا . واما اليهود ، فقـد كانوا يلتزمون اكثر فاكثر دور المرابين او السماسرة المقيمين ، يشترون ويبيعون الخيل والمواشي والبضائع المستعملة . واذ ذاك يتولى الباعة الالمان دور الهجوم ، فيجتازون « السبتيمر » او « الفران ـ سان ـ برنار » ليدركوا وادي البو ، ويفتحون بذلك لبضائع الشرق سوقا هائلة .

والهدف الرئيسي للتجار الالمان هو طبعا جمهورية سان ماركـو . فسواء قدموا من « شافهاوس » او « رفانسبورغ » او « رجانسبورغ » او« نورمبرغ » ، او « اوغسبورغ » او « اولم » او حتى « كولوني » فانهم جميعا مجذوبون نحو اكبر مستودع للبضائع العربية الثمينة . وكانوا يصلون باعداد كبيرة جدا ، حتى ان جمهورية البندقية كـانت ، على غرار السلطان المصري الذي كان بضع منذ وقت طويل تحت تصرف الباعة المسيحيين « فنادق » شخصية ، تحجز لهم مركزا يستطيعـون في وقت واحد ان يقيموا فيه ويمارسوا اعمالهم . وهذا النوع مـن المراكز في البندقية يحمل الاسم الذي كان العرب يطلقونه عليـه في بلادهم . انه فندق الالمان « فونداكو دي تيداتشي » ، وهو بناء يخص الدولة ، ويتألف مـن خمس وستين حجرة سكن للرجال والدواب ، وفرن خاص ، والامكنة اللازمة للاشغال المهنية : من مستودعات وحوانيت للبيع . انه مستعمرة صغيرة بذاتها .

ان هذا المركز هو محطة البدء لجميع التجار المتنقلين . فحيـن يصل كونراد ايزفوجيل من نورمبرغ الى البندقية ، فعليه ان ينزل في « فونداكو دي تيداتشي » ، وبعد ان يدفع حق الدخول يبيع ادواتـه النحاسية والحديدية ، وفراءه واقمشته المجلوبة من « باربانسون » .

عدد « فلسطين الممتاز »

تصدره الاداب في اخر الشهر القادم حافلا بالدراسات والقصص التـي كتبها عـدد من ادباء العليعة العربية

احجز نسختك

والاكثر من ذلك ـ على غرار ما يحدث عند العرب ـ انه لا يستطيع ان يجري معاملاته الا تحت رقابة مندوب الحكومة الرسمي ، الاخصائي بـ « تعرفات » البضـائع . وبالاضافة الى ذلك ، ينبغي لرجـل نورمبرغ ، بحضـور مندوب الحكومة ايضا ، ان يشتري بايـراده بضائع : توابل وعقـاقير من كل نوع ، وأقمشة وملابس مزدانـة بالذهب والحرير .

ذلك ان الحظوة العظيمة في الاتجـار مع البندقية لا يمكن ان تكتسب الا لقاء التقيد الدقيق بنظام شديد الصرامة . فلئـن كـان كونراد ايزفوجيل يستطيع ان يعود ببضائع الى نورمبرغ ، فانـه بالمقابل لا يستطيع ان يخرج اي مال من البندقية . واذا كان يحق له ان يراقب من حجرات فندقه صواري السفن التي تصل من صـور والاسكندرية ومقديشيو وسوتا ، فانه بالمقابل لا يسمح له قط بأن يقترب من مباني المرسى . ومن المحظور عليه ان يتبادل اية كلمة مع البحارة . كما انه لا يحق له ان يقترب ، حتى ولو لمسافة الصوت ، من تاجـر بورغوني او بوهيمي او ميلاني او فلورنسي . وبالمقابل ، تتعهد البندقية ألا تشتري بضائع المانية الا ضمن جدرانها والا تبيع بضائع بندقيـة في الارض الالمانية . على انها تحتفظ لنفسها في داخل امبراطوريتهـا الجزيرية وفي الادرياتيك بدور الوسيط ، دون سواها ، بين « الشرق » و « الغرب » . تلك هي اذن قاعدة التعامل ، وان البندقية لتسهر على ان يتقيد بها ضيوفها ، وهي لا تجهل ، في الواقع ، ان سر قوتها انمـا يكمن في هذه القاعدة .

اما جمهورية جنوى ، فتبدو ، بالمقابل ، اكثر حرية واوفر كرما . فبدلا من ان تكون تجارتها مع الشرق حكرا للدولة ، فهي ترتكز عـلى المبادرة الخاصة . وجميع اولئك الذين تلفتهم روح المشاريع نحـو اسبانيا وافريقيا الشمالية والمشرق ، يسعون اليها ايضا ، بصفتهـا مصرفا تجاريا هاما .

***

يبدو واضحا في اخر المطاف ان التوابل العربية هي في كـل مكان مصدر الثروة والقوة والنفوذ الاقتصادي . ومن المؤكد ان ازدهار الغرب يخرج مع الفلفل من السلال العربية .

وكانت غيبة بضائع « الشرق » قد سببت كساد التجارة واختفاء السلع وفي الوقت نفسه توقف انتقال الذهب . فمنذ اللحظة التـي انقطعت فيها العلاقات مع الشرق ، سقط الغرب مرة اخرى فيالوضع الفلاحي الريفي . ولهذا كانت عودة الفلفل وجوز الطيب والسكر مـن الشرق سببا لاكثر من جلب السرور للقصر وتنبيل حساء الملفـوف الذي يتناوله الغربيون . ذلك ان الاسواق الريفية الصغيرة التـي كانت من قبل كافية ، بحبوبها وبيضها واوانيها الفخارية والبستهـا المنسوجة في البيوت ، لتغطية الحاجات المحلية ، سوف تمحي ، عـلى اثر عودة البضائع من الشرق ، لتفسح المجال لاسواق ومستودعـات تستجيب لاشد المتطلبات طمعا ، تلك التي يتزاحم حولها فريق مـن

التجار القادمين احيانا من امكنة بعيدة جدا . ولن تكف الثروة عن التنامي ، ومعها يتنامى طفلاها المدللان ، الراحة والبذخ . ويعود المال الى التنقل ، محدثا ثورة اجتماعية حقيقية ، من غير اراقة الدماء .

ومن المؤكد اطلاقا ان البندقية ما كانت لتصبح ما اصبحت لولا تجارتها مع العرب . فلولا قرفتهم وكمونهم ، ولولا قرمزهم ونيلجهم ، لما استطاعت قط ان تحتل مكانها بصفتها اعظم قوة اقتصادية للغرب . ولنضف الى ذلك انها ستعرف ان تفيد افادة كبيرة من الظروف التي ستجلب لها القضية العظيمة ، قضية نقل محرري الارض المقدسة .

والواقع ان القبيلة التركية التي انقضت ذات يوم كالعاصفة على البلاد العربية ، انما وضعت ، بوحشية ، حدا لحكم المستنصر النبيل ، وفي الوقت نفسه ، أنهت المجـــاملة الكبيرة التي كان يعامل بها النصارى . وان سقوط القدس في ايدي السلجوقيين والتهديد الذي مارسه هؤلاء على امبراطورية الشرق ، دفعا الغرب المسيحي الـــى الانتقال للهجوم . وكان المسلمون والمسيحيون في فلسطين قد عاشوا بسلام جنبا الى جنب ، حتى تولى السلطة الحاكم ، الخليفة الفاطمي الثالث ، الذي كان متعصبا بقدر ما كان معتوها . ولبضعة قـــرون ، سيصبح هذا البلد ساحة قتال ، بينما كان نقل جيوش باتجـــاه « الاسلام » لا يني يشق مياه البحر الابيض المتوسط .

بيد ان الجمهوريات البحرية الايطالية لـــم تكف ، بسبب ذلـك ، عن مواصلة تجارتها المربحة مع العرب ، الا في بضع سنوات قرر فيها حبر روما ان يعاقب اي اتجار ، ومهما كان ، مع اعداء الدين . والواقع ان المجامع والسينودسات ما نتئت تعلن ان الخشب والاسلحة والمعادن هي بضائـع تهريب ، لان القصد منها كان مساندة الكفار في الحرب التي يشنونها على جنود المسيح . ولكن الاعلانات البابوية لم تؤد اية نتيجة . ألم يكن يُرى بحارة مسيحيون يتطوعون لامساك سكان سفـن الحرب العربية ؟ وجنوى ، ألم تسجل صداقتها المفضوحة للمسلميـن حين جهزت ، بناء على طلب سلطان مراكش ، ثماني عشرة سفينة كانت مرصودة لمساعدة « امير المؤمنين » ضد الصليبيين الذين لم يكونـوا يفكرون الا بالسلب والنهب ؟..

ولماذا ترى يراد للجمهوريات الايطالية ان تحرم نفسها من بضائـع الغرب ؟ اليس دور التاجر ان يتاجر ، وان يترصد جميع المناسبـــات الملائمة ويقبض عليها ؟ أليس نقل عشرين الفا ، ثم اربعين الفا مـــن جنود الله الذين يتزاحمون في ساحة سان مارك بانتظار ان يُحملوا الى عكا ودمياط ، اسهاما كافيا في القضية المسيحية الكبـــرى ؟ لا شك ان تلك صفقة مربحة . كما ستكون صفقة مربحة ان يتمكـــن الصليبيون ، عام ١٢٠٣ ، تحت قيادة البندقيين ، من سحق بيزنطـــة التي كانت ما تزال مهددة بالاسلام . ولسوف يأتي كاتب مسيحـــي فيصف كاريكاتور الصليبية هذا الوحشي بأنه « اشد ما رؤي تخريبا منذ كان العالم عالما » . والواقع ان الفرسان كانوا يستسلمون لرغبات جنونية في الهدم والاتلاف ــ أسوأ من رغبات الاتراك فيما بعد ــ بين انقاض المكتبات القديمة والآثار الفنية . والذي حدث هو ان البندقيـة ومنافساتها الايطاليات ، هي وحدها ، في معسكر المسيحية ، التـــي ستخرج منتصرة من الكارثة الكاملة التي كانتها الحروب الصليبية .

« وفي نهاية الامر ، استنفد الجميع قواهم من غير ان يبلغوا هدفهم » : بهذه الكلمات يصف الراهب الفرنسيسكاني الاسبانـــي « رامون لول » مجموع الجهود العابثة التي بذلتها المسيحية جيلا بعـــد جيل لتستعيد قبر السيد المسيح ، و « لتبيد الكفار او تحملهم عـلى اعتناق دينها » ولتقيم سيادتها في الارض المقدسة .

ولكن البندقية الحكيمة لم تستنفد قواها قط ! والحق ان شائعة كانت منتشرة في الغرب : ألم يكن في نية سكان البندقية ، بعد النهاية المخربة للحملة ، ان يتحالفوا مع الاسلام ؟ انه ليبدو واضحا على اية حال انهم قد احتفلوا احتفالا فائض الحيوية بالهزيمة المريعة التـــي أصابت ملك فرنسا القديس لويس !

احدث المطبوعات التي صدرت عن

دار الثقافة ـ بيروت

٧٥٠	فارس آغا	مارون عبود
٢٥٠	العدالة الاجتماعية عند العرب	ابراهيم حداد
٤٥٠	شعر الخوارج	تحقيق الدكتور احسان عباس
٦٠٠	المكتبة الكاملة	تحقيق الدكتور احسان عباس
٢٠٠	فن المقالة	للدكتور محمد يوسف نجم
٢٠٠	فن القصة	للدكتور محمد يوسف نجم
٢٠٠	الزهاوي بين الثورة والسكوت	عبد الرؤوف الهلالي
٥٠٠	سبل ومناهج	مارون عبود طبعة جديدة
٥٠٠	جدد وقدماء	مارون عبود طبعة جديدة
١٥٠٠	فهرس الاغاني المجلد الاول	الاصفهاني
٠٠٠٠	الشعر والشعراء لابن قتيبة المجلد الاول	تحت الطبع
٠٠٠	تباريح الشباب اسماعيل مظهر	تحت الطبع

تطلب هذه الكتب من دار الثقافة ــ بيروت

بيروت ص. ب ٥٤٣ ــ تلفون ٢٣٠٥٦١